وقف مركز مكة العالمي للهدى القرآني
هدى للناس
جمعية القلم للدراسات والأبحاث
مؤتمر
هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

بناء العقل في القرآن الكريم
في ضوء هدايات سورة الحج

اسم الباحث/ـة

د/ رشيد الحمداوي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه. أما بعد،

فإن الله تعالى أنزل القرآن الكريم لمقاصد عظيمة، في مقدمتها هداية الإنسان، وكما أن الله تعالى أمده بالمدد الجسماني، فقد أمده بالمدد الروحاني، وأنزل كتابه ليكون روحُه وعقلُه موافقيْن لما للفِطرة، قائميْن بما ينهض به الإنسان لإصلاح معاشه والاستعداد لمعاده.

والبشرية اليوم تتنازعها آفات وأهواء، منها خواء الروح عند طائفة، وغلو العقل عند طائفة أخرى، أو العكس. وقد جاء القرآن ليبني الإنسان بناء متوازناً لا يعيش في أشواق الروح مع إهمال الجسد، ولا يستجيب لغلواء العقل مع تجويع الروح وإنهاكها.

وقد عقدت العزم على المشاركة في "مؤتمر هدايات القرآن في بناء الإنسان" الذي سوف ينظمه وقف مركز مكة العالمي للهدى القرآني" بمكة المكرمة. واخترت أن أشارك فيه ببحث بعنوان: "**بناء العقل في القرآن الكريم في ضوء هدايات سورة الحج**"، وأريد أن أدرس فيه هذين الجانب من خلال سورة الحج، وأبيّن كيف بنى القرآن الكريم عقل الإنسان وروحه بصورة يخدم أحدهما فيه الآخر، لينشأ عنهما الإنسان المتمثل بعبودية الله، المحقق لواجب الخلافة في الأرض. وارتأيت أن أجعل دراستي محصورة في سورة الحج التي قد يتبادر إلى الذهن أن موضوعها هو عبادة الحج، ولكنها تتضمن في ثناياها أسساً تبني الروح الزكية وتشكل العقل الواعي الحكيم.

وتتجلى أهمية هذا الموضوع في كونه يبين التوازن الذي ينبغي أن يكون بين العقل والروح، ويظهر كيف أن القرآن لم يغفل جانب العقل الذي اعتدّ به الغرب وأقاموا عليه حضارتهم، وإنما يقومه ويسدده ويوجهه نحو ما ينفعه ويمنع

غلوه، ويربطه بالسمو الروحي الذي يصعد بصاحبه في معراج العبودية نحو خالقه سبحانه.

أهداف البحث:

١. بيان اهتمام القرآن ببناء العقل الإنساني.

٢. بيان توجيهات القرآن في بناء العقل.

٣. إظهار حدود التفكير العقل في الإسلام.

وأنوي إعداد هذا البحث من خلال المحاور الآتية:

- مفهوم العقل وأهميته في القرآن الكريم.
- بناء العقل في ضوء هدايات سورة الحج.
- حماية الفكر وتحريره من عوائقه في ضوء هدايات سورة الحج.
- حدود العقل في ضوء هدايات سورة الحج.

وأسأل الله تعالى أن يوفقني في هذا البحث وينفع به يجعله خالصاً لوجهه سبحانه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول: مفهوم العقل وأهميته في ضوء هدايات سورة الحج

المطلب الأول: مفهوم العقل:

أولاً: العقل في اللغة: العقل في اللغة: هو مصدر فعل عقل يعقل عقلاً، وأصل معنى العقل: المنع، وهو يطلق على معان متعددة، منها:

١- الحبس، مأخوذ من قولهم: «عقل البعير» إذا ربطه بالعقال ليحبسه منعه من الحركة، ويقولون: (قد اعتقل لسانه) إذا حبس ومنع الكلام.

٢- الحِجْر والنُّهى: ضد الحمق. وسمي بالعقل لمنعه عن فعل القبيح وما لا يليق.

٣- الدية: وسميت العقل؛ لأن عصبة القاتل يأتون بالإبل ويعقلونها بباب ولي المقتول. وقيل: لأنهم يمنعون من القاتل. وقيل: لأنها تعقل الدماء من أن تُسفك.

٤- الفهم، يقال: (عقل الشيء يعقله عقلا) إذا فهمه.

٥- المسك، يقال: (عقل الدواء بطنه): أمسكه، وقيل: أمسكه بعد استطلاقه.[١]

وكل هذه المعاني راجعة إلى معنى المنع، وقال الراغب الأصفهاني: "وأصل العَقْل: الإمساك والاستمساك"[٢].

ثانياً: العقل في اصطلاح العلماء:

اختلف العلماء في تحديد معنى العقل، نظراً لكونه اسماً مشتركاً يطلق على عدد من المعاني، وقد حقق الغزالي أن العقل يقع بالاستعمال على أربعة معانٍ:

الأول :الغريزة المدركة التي يتهيأ بها الإنسان لإدراك العلوم، فبها يعلم ويعقل، وهي فيه كقوة البصر في العين، والذوق في اللسان، فهي شرط في المعقولات والمعلومات، وهي مناط التكليف، وبها يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان.

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٤/ ٦٩)، وتهذيب اللغة (١/ ١٦١)، والصحاح (٥/ ١٧٦٩)، ولسان العرب (١١/ ٤٥٨).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص٥٧٨).

المعنى الثاني: العلوم الضرورية، وهي البديهيات العقلية التي يتفق عليها جميع العقلاء، كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، وأن الكل أكبر من الجزء ونحوها من البديهيات، وهي علوم غير مكتسبة، ولا تحتاج إلى دليل لإقرارها.

الثالث :العلوم النظرية، وهي التي تحصل بالنظر والاستدلال، أو تستفاد من التجارب.

الرابع: الأعمال التي تكون بموجب العلم، بحيث تنتهي قوة الغريزة إلى حد معرفة عواقب الأمور وقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة وقهرها(١).

ثالثاً: مفهوم العقل في القرآن الكريم:

لم ترد كلمة "العقل" بصيغة المصدر في القرآن الكريم، وإنما ورد بصيغة الفعل، فورد بصيغة الماضي مرة واحدة (عقلوه)، ووردت بصيغة المضارع ٤٨ مرة، تارة على سبيل الاستفهام: (أفلا تعقلون)، وتارة باستعمال أداة الترجي (لعلكم تعقلون)، وتارة على بأسلوب التقرير (لقوم يعقلون)، وتارة على سبيل النفي (لا يعقلون)(٢).

والعقل في النصوص الشرعية يرد بمعنيين: العقل الغريزي الذي هو مناط التكليف، والعقل المكتسب الذي هو مناط التكريم. فالعقل الغريزي هو القوّة المتهيّئة لقبول العلم، والعقل المكتسب هو العلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوّة ويبعثه على العمل، وقد تنبه الراغب الأصفهاني إلى السياق الذي يرد فيه كلاهما، فقال: "كل موضع ذم الله الكفار بعدم العقل فإشارة إلى الثاني دون الأول: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ إلى قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين (١/ ٨٥ – ٨٦)، والأذكياء لابن الجوزي (ص١٠).

(٢) (عقلوه): وردت في موضع واحد من القرآن. (تعقلون): وردت في ٢٤ موضعاً من القرآن. (يعقلون): وردت في ٢٢ موضعاً من القرآن. (يعقلها): وردت في موضع واحد من القرآن. (نعقل): وردت في موضع واحد من القرآن.

فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾، ونحو ذلك من الآيات، وكل موضع رفع التكليف عن العبد لعدم العقل فإشارة إلى الأول"[1].

وجميع الآيات التي جاء بها ذكر العقل، كلها تدور حول معنى العلم والفَهْم والإدراك والتفكر، مثلاً قوله تعالى في السورة موضع الدراسة: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ (الحج: ٤٦)، فإنه يفيد أن العقل هو فعل من الأفعال التي تجري في باطن الإنسان، ووظيفة من الوظائف التي يقوم بها، ولذلك جاءت في هذه الآية وغيرها بصيغة الفعل لا بصيغة الاسم، فالعقل - باصطلاح المتكلمين - عرَض لا جوهر، فهو كالفقه في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [سورة الأعراف: ١٧٩].

وقد صرح بعض المفسرين أن معنى {يعقلون بها}: «يعلمُونَ بِهَا»[2]، وزاد الواحدي إيضاحاً فقال: «أي يعلمون بها مدلول ما يرون من العبر»[3].

وقال الألوسي: "أي يعلمون بها ما يجب أن يعلم من التوحيد"[4].

وذكر الماوردي أن في الآية تفسيرين: "أحدهما: يعلمون بها، والثاني: يعتبرون بها"[5]، ولذلك استنتج أن الآية تدل «على أن العقل علم»[6].

وليس المراد مجرد العلم، وإنما علم يستقر في القلب فيبعث صاحبه على العمل بمقتضاه، وبهذا ندرك أن المقصود من العقل في القرآن الكريم هو العلم والفَهْم الذي يقود إلى العمل. ولذلك نرى العلامة ابن تيمية -رحمه الله تعالى- يقول:

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص٥٧٨).
(٢) تفسير الثعلبي (٧/ ٢٧)، تفسير السمعاني (٣/ ٤٤٥)، وتفسير الخازن (٣/ ٢٥٩)، واللباب في علوم الكتاب (١٤/ ١١١).
(٣) التفسير البسيط (١٥/ ٤٤٣).
(٤) روح المعاني (٩/ ١٥٩).
(٥) أدب الدنيا والدين (ص٢٠).
(٦) النكت والعيون (٤/ ٣٢).

"فالعقل لا يُسمى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه، ولا العمل بلا علم؛ بل إنما يُسمى به العلم الذي يعمل به والعمل بالعلم؛ ولهذا قال أهل النار: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠﴾ [سورة الملك: ١٠]، وقال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا}"[(١)].

المطلب الثاني: محل العقل وأهميته:

أولاً: محل العقل في ضوء القرآن الكريم:

اختلف العلماء في المحل الذي يستقر فيه العقل على ثلاثة أقوال:

الأول: محل العقل هو القلب. وإلى هذا القول ذهب أكثر الفقهاء.

الثاني: محل العقل هو الرأس. وهذا قول بعض الفقهاء وأكثر الأطباء والفلاسفة.

الثالث: محل العقل هو القلب، إلا أن نوره يعلو إلى الدماغ، فيفيض منه إلى الحواس ما جرى في العقل وهذا القول منسوب إلى أبي الحسن التميمي[(٢)] وغيره.

ومن أدلة قول الجمهور قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾ (الحج: ٤٦). ووجه الاستدلال أنه تعالى جعل القلوب آلة التعقل، وهذا يقتضي أن القلب محل العقل[(٣)]، ثم أكد أن المراد به القلب الموجود في الصدور بقوله: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ (الحج: ٤٦)، فدل هذا على أن القلب هو الذي يبصر المعاني ويميز بينها ويعقلها[(٤)].

---

(١) مجموع الفتاوى (٩/ ٢٨٦).
(٢) ينظر العدة في أصول الفقه (١/ ٨٩).
(٣) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٤).
(٤) ينظر المحرر الوجيز (٤/ ١٢٧)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٤) و(٢٤/ ٥٣١)، وفتح القدير (٣/ ٥٤٤)، وأضواء البيان (٥/ ٢٧٥)..

والمراد بالقلب اللطيفة الروحانية المتصلة بالقلب الحسي، لا المضغة الصنوبرية التي في الجسم[1].

قال الغزالي: «وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب فالمراد به المعنى الذي يفقه من الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء، وقد يكنى عنه بالقلب الذي في الصدر»[2].

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ (ق: ٣٧)، وأراد به العقل، فدل على أن القلب محله؛ لأن العرب تسمي الشيء باسم الشيء إذا كان مجاوراً له أو كان بسبب منه[3].

الدليل الثالث: قوله عز وجل: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [سورة الأعراف: ١٧٩]. ووجه الاستدلال أن الفقه هو العلم والفهم، وآلة الفهم هي العقل. ولو لم تكن القلوب محلا للعلوم لما أضاف الحق تبارك وتعالى الفقه إليها. وإذا ثبت أن القلب محل للعلوم كان محلا للعقل الذي هو بعض تلك العلوم.

أما القول بأن محله الرأس فإن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ (الحج: ٤٦)، فيه ردٌّ على ذلك؛ لأن الله تعالى بين أن محل ذلك هو الصدر.

والراجح أن العقل في القلب ويفيض نوره إلى الدماغ، وذلك؛ لأن استقرار قوة العقل في القلب أو في الرأس أمر خفي، وما كان كذلك فالحكم فيه

---

(١) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٥٥)، قال الغزالي في الإحياء (٣/ ٣): (هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب، ولها علاقة مع القلب الجسماني، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته فإن تعلقه به يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة أو تعلق المتمكن بالمكان).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٥).

(٣) ينظر العدة في أصول الفقه (١/ ٩٠).

موقوف على الشارع، والذي دل عليه ظاهر النصوص القرآنية أن القلوب هي التي تعقل، ولا بد أن نوفق بينه وبين ما تكشف في العصر الحديث من بحوث في الدماغ. وهذا القول جامع بين الدليل الشرعي والدليل الحسي. فالقلب كالمولد للطاقة، والدماغ كالشمعة يضيء ويكشف الحقائق، ولو احترقت لم نستفد من المولد شيئاً. ولذلك قال ابن عطية في تفسيره عند تفسير آية سورة الحج: «وهذه الآية تقتضي أن العقل في القلب وذلك هو الحق، ولا ينكر أن للدماغ اتصالا بالقلب يوجب فساد العقل متى اختل الدماغ»(١).

وحقق العلامة ابن تيمية:(٢) أن منشأ التعقل ومبدأه من القلب، ونهايته ومستقره ومنتهاه في الدماغ، وتبعه في ذلك ابن القيم(٣).

والمعروف في الطب أن العمليات العقلية تجري في الدماغ، والذي يظهر لي أن هناك ارتباطاً خفياً بين الدماغ والقلب، فالدماغ يُدرك الأشياء بالحواس، أو بالتفكير فيها، ثم يعقلها القلب فيرفضها أو يقبلها، فترجع للدماغ مرة أخرى محملة بالقرار من القلب، ويرسل الإشارة اللازمة بسلوك معين، أو بقرار معين، بحسب ما جاء من القلب.

وقد نقل ابن أمير الحاج عن صدر الإسلام قوله: "وهو جسم لطيف مضيء، محله الرأس عند عامة أهل السنة والجماعة، وأثره يقع على القلب، فيصير القلب مدركا بنور العقل الأشياء، كالعين تصير مدركة بنور الشمس وبنور السراج الأشياء، فإذا قل النور وضعف قل الإدراك وضعف، وإذا انعدم النور انعدم الإدراك"(٤).

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ١٢٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٣ – ٣٠٤).

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١٩٥)، والتبيان في أقسام القرآن (ص: ٤٠٤).

(٤) التقرير والتحبير (٢/ ١٦٢).

ثانياً: أهمية العقل في ضوء القرآن الكريم:

من أجل نعم الله على الإنسان نعمة العقل. ويدلنا على منزلته إجمالاً ورود مشتقات مادته في لقرآن الكريم ٤٩ مرة، وورود كلمات تتعلق به مثل القلب والفؤاد والحِجر والنهى والألباب، وما يدل على ما يشبهه - مثل العلم والفقه والتفكر والتذكر والتدبر والنظر والاعتبار والوعي - أكثر من ألف مرة.

ومن الإشارات التي تبين أهمية العقل في سورة الحج:

١-الامتنان بنعمة القدرة العقلية:

لقد امتن الله تعالى على الإنسان بأنه خلقه وأخرجه من بطن أمه وهو لا يمتلك أي قدرة من القدرات، ومنها القدرة على التعقل والتعلم، ولكن وهبه الحواس: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة النحل: ٧٨].

وأشار في سورة الحج إلى أن الإنسان يبتدئ مرحلة الطفولة وهو معدوم العقل والقدرة، ثم ينمو ويبلغ كمال ذلك بالتدريج مع تقدم العمر حتى يبلغ أشُدَّه[(١)]؛ فقال: ﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ﴾، أي ولدوا وكانوا أطفالا لم يبلغوا أشدهم، ثم بلغوه بعد ذلك.

وسن الأشد هو المرحلة العمرية التي يستوفي فيها الإنسان نموه الجسدي والعقلي والنفسي، ويكون ذلك بين الثلاثين والأربعين من العمر[(٢)]؛ لأن الله تعالى قال في آية أخرى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ [سورة الأحقاف: ١]، فهو يشعر بأن الأشُد مُنتهٍ إلى الأربعين، وهي سن الوقوف،

---

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٣٤).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٦٥)، ومعاني القرآن للزجاج (٣/ ٤١٣)، والتفسير البسيط (١٥/ ٢٦٩)، والكشاف (٤/ ٣٠٢). وفي تفسير السمرقندي (٢/ ٤٤٩): (ويقال: إلى ست وثلاثين سنة) وقد روى الطبري في تفسيره (٢١/ ١٣٩): عن ابن عباس، قال: «{أشده}: ثلاث وثلاثون سنة، واستواؤه أربعون سنة...»، ورجحه الطبري.

فينبغي أن يكون مبدؤه قبل ذلك[1].

ثم يشعر قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أن الإنسان بعد هذه المرحلة تتراجع قواه فيضعف العقل، ويضل الفكر، وينسى بعد أن كان يعلم. وتفيد الآية أيضاً أن في ضعف العقل مراتب بحسب توغله في أرذل العمر، تبلغ إلى مرتبة انعدام قبوله لأي معلوم جديد، وذلك لأن ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي تعمُّ كلَّ معلوم، أي لا يستفيد معلوما جديداً[2]. وقبلها مراتب من الضعف متفاوتة، كمرتبة نسيان الأشياء، ومرتبة التخليط بين المعلومات، وغير ذلك.

وتشير الآية إلى أن من بلغوا أرذل العمر قد ينسون ما علموه بعد وقت قصير، ويؤخذ هذا من التعبير ب ﴿مِنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾، فأثبت «مِنْ» الابتدائية للدلالة على قرب زمن الجهل من زمن العلم، فربما بات الإنسان في غاية الاستحضار لما يعلم، فيعود في صبيحة ليلته أو بعد أيام يسيرة لا يعلم شيئًا، وربما نسيه بعد وقت يسير حتى إنه يسأل عنه من ساعته فلا يتذكره[3].

وفي ذلك كله إشارة إلى أن القدرات العقلية محض فضل من الله تعالى، وأن العلم عطاءٌ من الله يعطيه متى شاء، ويسلبه من العبد متى شاء!

٢-العقل الغريزي لا ينفع صاحبه إن لم يتفكر:

نبه الله تعالى على أن العقل الغريزي الذي ميز الله به الإنسان عن باقي الحيوانات قد لا ينفع صاحبه، ولا يوصله إلى الإيمان بخالقه وطاعة أوامره

(١) ينظر روح المعاني (١٠/ ٢٦١).
(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٢).
(٣) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٥)، ونظم الدرر (١٣/ ١١).

فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ﴾ (الحج: ١٨)؛ وذلك لأن الله وصف الجمادات كلها بالسجود، أما العقلاء فمنهم من لا يسجدون لربهم، فمع أن الله وهبهم عقولا إلا أنهم سُلبوا فائدته. فسبحان من (وهَب لأقوام من العقل ما يثبت عليهم الحُجة، وأعمى قلوبهم كما شاء عن المحَجة)[(١)].

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ إشارةٌ إلى أن السير في الأرض لا يستفيد منه صاحبه شيئاً إلا إذا عقل بقلبه ما يحيط به واعتبر بما يراه واستدلَّ به على الخالق الذي خلق الكون ودبر شئونه[(٢)].

٣- لا ينتفع بالحواس دون إعمال العقل:

إن الحواس هي القناة التي توصل المدركات إلى القلب. ومع ذلك فإنها لا ينتفع بها دون التعقل والتفكر، ففي قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾، إشارةٌ إلى أن الأبصار إنما هي سبيل لإدراك المبصَرات، والأسماع سبيل لإدراك الأصوات، أما الانتفاع بما نبصره ونشاهده فيتوقف على العقل، فإذا لم نعمله فإننا لا ننتفع بما أبصرناه أو سمعناه.

ويؤخذ هذا من أن الله تعالى جعل الذي لا ينتفع ببصره مع وجوده وسلامته أعمى:

---

(١) صيد الخاطر، لأبي الفرج بن الجوزي (ص: ٤٢٥).
(٢) التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٥٢).

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾[1] .

فلا فائدة للإنسان في السمع والبصر إلا إذا كان له قلب حي، وإلا شابه البهائم وصار من أهل النار.

وقد قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [سورة الأعراف: ١٧٩][2] .

وأشارت الآية إلى أن العمى الحسي لا يؤثر في شأن الدين وأمر الآخرة، وإنما الذي يؤثر فيه هو عمى البصيرة[3] ،

ولذلك قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾، وقد قال في آية أخرى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٧٢﴾ [سورة الإسراء: ٧٢] .

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٣)، والتحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٩). وقد روى ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٤٩٨، رقم ١٣٩٨٣) عن قتادة أنه قال في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾: (أما هذه الأبصار التي في الرؤوس فإنها جعلها الله منفعة وبُلغة، وأما البصر النافع فهو في القلب).

(٢) ينظر حسن التنبه لما ورد في التشبه (٣/ ٣٦٧).

(٣) ينظر تفسير البغوي (٥/ ٣٩١). وقد روى يحيى بن سلّام في تفسيره تعليقا (١/ ٣٨٢ – ٣٨٣) عن مجاهد أنه قال: (لكل عين – يعني لكل نفس – أربع أعين: عينان في رأسه لدنياه وعينان في قلبه لآخرته، فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه لم يضره عماه شيئا، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه لم ينفعه شيئا. قال الله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: ٤٦]). وقد رواه أبو داود في الزهد (ص: ٣٩٨، رقم ٤٩٦) بمعناه عن خالد بن معْدان.

المبحث الثاني: تنمية العقل وتزكيته

ويمكن إجمال ذلك في ثلاثة أمور:

المطلب الأول: الدعوة إلى التفكر

١-الحث على التفكر في آيات الله الكونية:

فقد حث على التفكر إما صراحة وإما إيماءً. فمما حث فيه صراحة على النظر والتفكر آية اخضرار الأرض بعد نزول الغيث، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥﴾ [سورة الحج: ٥]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ۝٦٣﴾ [سورة الحج: ٦٣ - ٦٦].

ففي هذه الآية وما بعدها ترغيبٌ وحثٌّ منه تعالى على النظر في مخلوقاته والتفكر في آياته الكونية الدالة على وحدانيته وكمال صفاته [(١)]؛ لأنها استفتحت بهذا الاستفهام التقريري: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾.

كما يدعو إلى التفكر فيما سخره الله لنا، فيقول: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ۝٦٣ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝٦٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٦٥﴾ (الحج: ٦٣ - ٦٥).

ومما وجه الله إلى النظر إليه والتأمل فيه خضوع المخلوقات كلها لله سبحانه، وذلك حين قال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۝١٨﴾ (الحج: ١٨)،

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٤).

وهذه الآية تومئ أن العاقل عليه أن يتفكر في الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب؛ لأن الله تعالى خصها بالذكر بعد أن عمّها بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾. ويؤيده أن في القرآن آيات كثيرة تتضمن الأمر بالنظر إلى هذه المخلوقات نظرَ تفكرٍ واعتبار.

ومما حث فيه على التفكر على سبيل الإيماء أمر أطوار خلق الإنسان في الرحم، وتغيره عبر المراحل العمرية من الولادة إلى الوفاة، وذلك إذ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ﴾ [سورة الحج: ٥].

ففي هذه الآية دعوةٌ إلى التفكر في خلق الإنسان ومراحل تخلقه ونموه من كونه نطفة إلى مماته، والاعتبار بذلك والاستدلال به على قدرة الله وعلمه وحكمته سبحانه. وقد ندبنا الله إلى النظر في خلقنا في آيات متعددة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿فلينظر الإنسان مم خُلِق﴾.

وتفيد الآية أن التفكر في أمر ابتداء خلق الإنسان يقود الإنسان إلى الإيمان بقدرة الله على البعث؛ لأنه لا يوجد في القدرة فرق بين ابتداء الخلق وإعادته[1].

كما تشير الآية إلى أن التفكر في أطوار الخلق جدير بأن يجعل الإنسان يعظم ربه، ولذلك عرّفنا بها في غير ما آية ليبين لنا عظمته سبحانه، وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾ [سورة نوح: ١٣ – ١٤].

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج (٣/ ٤١٢)، والهداية (٧/ ٤٨٤٤)، وزاد المسير (٣/ ٢٢٣)، والإشارات الإلهية (ص: ٤٤٤).

ومما ذكره تعالى ليتفكر فيه الإنسان ويستدل به على عظم قدرة الله تعالى تعاقب الليل والنهار، وذلك في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١﴾ [سورة الحج: ٦١].

ففي الآية توجيهٌ لأنظار الناس إلى التفكر في النواميس الكونية التي تحيط بهم، والتأمل بعين اليقظة في الظواهر الطبيعية التي يشاهدونها باستمرار، وتشهد بربوبية الله للخلق، وطلاقة قدرته، وإحاطة علمه، ودقة حكمته[(١)]. وفيها إيماءٌ إلى أن العاقل يلزمه أن يعتبِر بالآيات الكونية ويستدلَّ بآياته في تصريفه للكون على تصريفه للأقدار والأحداث؛ وذلك أن الله تعالى علّل ما تقدم من نُصرته للمظلومين بتصريفه للّيل والنهار فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾، أي ذلك النصرُ للمظلوم بسبب أنه قادر على ما يشاء، ومن آيات قدرته أنه يصرف الليلَ والنهار، فيولج هذا في ذاك، ويولج ذاك في هذا[(٢)]،

فالقادر على ذلك قادرٌ على إنفاذ ما وعدهم إياه من النصر[(٣)].

ويلفت الانتباه إلى ما يدعو إلى التفكر، كأن يشير إلى المنافع بشكل إجمالي بقوله سبحانه: ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٣٣﴾ [سورة الحج: ٣٣]. وفي هذا إيماءٌ إلى أن تعدد المنافع في البُدْن يحمل ذوي البصائر على التفكر فيها، لا سيما مع تفاوتها، والتفكر فيما جعله الله في شعائره من منافع يحمل من تفكر فيها على تعظيمها، وتعظيمها يوصل إلى تقوى الله. ويؤخذ من أن هذه الآية جاءت وكأنها تعليل لما قبلها،

---

(١) الدراسة التحليلية لأهداف سورة الحج (ص ١٤١).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٢١)، وتفسير البغوي (٥/ ٣٩٧)، والكشاف (٣/ ١٦٧)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٥).

(٣) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٣٦).

وهي قوله سبحانه: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾ [سورة الحج: ٣٢] (١).

ويلفت أنظارنا إلى تسخيره تعالى للبدن وتذليلها لنا وتمكيننا من ركوبها وقيادتها والحمل عليها مع عظم أجسامها لننتفع بها ونتقرب بنحرها له سبحانه، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦﴾ (الحج: ٣٦). ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ﴾ (الحج: ٣٧).

٢-الحث على التفكر في آثار الأمم السابقة والاعتبار بها:

من مجالات إعمال العقل آثار السابقين وتاريخ الأمم السالفة: فقد دعا الله تعالى إلى السير في الأرض من أجل النظر في آثار الأمم الماضية، والوقوف على أخبارهم، واستجلاء العبَر ممّا حلّ بهم ونزل بديارهم، فقال تعالى: قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ٤٥ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [سورة الحج: ٤٥ – ٤٦] .

وهذه الآية تدل على وجوب التفكر؛ لأن الله تعالى أمر المشركين بالسير من أجل التفكر في آثار السابقين، والأمر للوجوب، وإذا كانت الوسيلة واجبة، فالمقصَد أشد وجوباً.

وفيها حث على التفكر فيما نشاهده وتدبر أسباب ما آلت إليه تلك الأمم والاعتبار به، وإنما ذكر السيرَ في الأرض لأنه يتوقف عليه (٢).

ونظيرُه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا

(١) ينظر نظم الدرر (١٣/ ٤٦).
(٢) ينظر روح المعاني (٩/ ١٥٩)، وزهرة التفاسير (٩/ ٤٩٩٩).

وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩﴾ [سورة الروم: ٩]،

وقوله سبحانه: ﴿۞ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٢١﴾ [سورة غافر: ٢١].

وتومئ الآية إلى أن التفكر في عواقب الظلمة والمفسدين وما أحله الله بهم من العقوبات من أسباب حياة القلوب وانفتاح البصائر؛ لأن الله قال في ختامها: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [سورة الحج: ٤٦].

وفيها تنبيهٌ على ذم النظر إلى الآثار لمجرد الفرجة والاطلاع، مع الغفلة عما وراءها من العظات والعبر؛ لأن الله تعالى بعدما دعاهم إلى السير في الأرض أشار إلى أن الذين يبصرونها بأبصارهم ولا يعتبرون بها عُمْيُ البصائر.

وإنما لا بد من إعمال العقل من أجل الاتعاظ والاعتبار.

فكل ما تراه العين من الآثار العمرانية للغابرين لا بد أن يكون العقل يقظا عند رؤيته، وكل ما تسمعه الأذن من الأحداث التاريخية لا بد أن يلتمس العاقل العبرة منه، ليستنبط منه أسباب انهيار الحضارات أو ازدهارها وعلة هلاك تلك الشعوب وزوال ملكها.

٣- الدعوة إلى التفكر في الأمثال:

مما تميز به القرآن الكريم ضرب الأمثال، والمقصد منها هو تعقلها والتفكر فيها، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٣)، وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٢١). وقد ضرب الله في سورة الحج مثلاً عظيماً لحقارة ما يعبد من دون الله فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ

تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ (الحج: ٧٣)،

وهذه الآية تشير إلى إعمال الفكْر فيما يلقى من الحجج والأمثال؛لأن الله تعالى أمر بالاستماع إلى المثل المضروب فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾، أي: أنصتوا وتدبروه حقَّ التدبر؛ لأن السماع المجرد بغير تدبر وتعقُّل لا ينفع[(١)].

٤-عرض ما يستثير الفكر ويدعو إلى إعمال العقل:

أحياناً يعرض الله عز وجل أحوالاً متباينة ليقوم القارئ بالمقارنة بينها، ويعرض عليه مشاهد من النشر والحشر والثواب والعقاب ليتفكر المرء فيها ويكون بين الخوف والرجاء ليعمل بطاعته رجاءً لثوابه، ويجتنب عصيانه خوفاً من عقابه.

ومن أمثلة ذلك في سورة الحج حين يزاوج بين الترغيب والترهيب، ويقرن بين مصير الكافرين ومصير المؤمنين، ومن ذلك قوله تعالى في وصف أهل النار: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ (الحج: ١٩)، وما يتلوها من آيات، وقوله بعدها في صوف أهل الجنة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ (الحج: ٢٣ – ٢٤).

وكذلك قوله في بيان جزاء المؤمنين: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٥٠﴾﴾: ثم يتبعه بقوله في جزاء المكذبين: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾[سورة الحج: ٥١]؛ ليبعث العقل على الموازنة بين المصيرين، واختيار أحسن العاقبتين.

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٥١)، وتفسير الخازن (٣/ ٢٦٤)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤٥٣).

كما يستثير التفكر فيما يدعى من دون الله، وينبه سبحانه أنها لا تنفع ولا تضر، بل إن ضرها أقرب من نفعها؛ لأن من شأن العاقل أن يسعى إلى ما ينفعه ويجتنب ما يضره، فيقول تعالى: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٢ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ۝١٣﴾(الحج: ١٢، ١٣)، وفيها إيماءٌ إلى أن العاقل هو الذي يختار لولايته من يقدر على نصرته، ويختار للعشرة من ينتفع بعشرته ولا يتضرر بصحبته.

المطلب الثاني: الحث على العلم

أهم ما ينمي العقل بعد التفكر هو العلم، فكما أن نمو الجسم بالطعام فإن نمو العقل بالعلم. وقد وردت كلمة "علم" في سورة الحج: خمس مرات، ثلاث منها بصيغة النفي "بغير علم"، واثنتان بصيغة الإثبات.

١-التنبيه إلى فضل العلم:

نبه الله تعالى في سورة الحج على فضيلة العلم، ذلك من خلال استنكاره لمن يجادل بغير علم، أو يعبد غيره بدون سندٍ من العلم، فقال في فواتح السورة الكريمة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ [سورة الحج: ٣]. وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾ [سورة الحج: ٨].

وفي هذه الآية دلالةٌ على فضل العلم؛ لأن الله سبحانه ذم الجدال الذي لم يقترن بالعلم. وتفيد بمفهومها أن الجدالَ الصادرَ عن علم وتحقيق وبرهان سائغٌ(١)، كجدال إبراهيم عليه السلام لقومه؛ لأن ذم المجادلة مع عدم العلم بالأدلة يدل على أن المجادلة بالعلم جائزة؛ لأن مفهوم قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أنه إن كان بعلم فالأمر بخلاف ذلك، وليس في ذلك اتباع للشيطان.

(١) ينظر الإشارات الإلهية (ص: ٤٤٤).

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨﴾ [سورة الحج: ٨]. إيماء إلى أن من لم يكن له علم، فعليه ألا يتأبّى على من يهديه إلى الرشد، وألا يعرض عن النظر في الكتب النافعة (١)؛ لأن الله تعالى ذكر العلم أولا، ثم ذكر الهدى بعده. وتفيد الآية أيضاً أنه لا بد لمن يجادل المكذبين ويناضل عن الدين أن يكون على علم بالأدلة والحجج النقلية والعقلية، عارفا بمذهب المخالفين، ليستطيع ردَّ الشبهات والانفصالَ عن الاعتراضات، وإلا كان ممن يجادل بغير علم (٢).

وأفاد قوله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ﴾، أن العلم يقود إلى الإيمان بالله (٣)؛ لأن الله تعالى فرّع الإيمان على علمهم بأنه الحق من عند الله تعالى.

وقد قال تعالى في آية أخرى في شأن المتشابه: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [سورة آل عمران: ٧]. كما تدل على أن العلم الحق يقترن بالإيمان(٤)، ولا يفترق عنه، كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ [سورة النساء: ١٦٢]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ﴾ [سورة الروم: ٥٦].

وفي الإتيان بهذه الآية عقب قوله تعالى: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ إشارةٌ إلى أن العلم الحقَّ هو الذي يداوي القلوب من أمراض الشكوك والشبهات، ويورثها السكينةَ الطمأنينة(٥).

---

(١) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٩٢).
(٢) لطائف الإشارات (٢/ ٥٣١).
(٣) ينظر مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٧١).
(٤) ينظر تفسير ابن تيمية (٤/ ٤٤١).
(٥) ينظر مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٧١).

وأن العلم النافع هو الذي يحصن من وساوس الشيطان وما يلقيه من شبهات؛ ؛لأن الله بين أن أهل العلم لا يتأثرون بما يلقيه الشيطان، وإنما يعلمون أن ذلك جارٍ على سنة الله في الابتلاء، فتخبت قلوبهم.

٢-التنويه بالعلماء:

رفع الله منزلة أهل العلم ونوه بشأنهم، فجعل شهادتهم مقترنة بشهادة الله عز وجل والملائكة المكرمين، فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]. وقال تعالى: ﴿وَإِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ (الزمر: ٩)، {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

وقد نوه سبحانه في سورة الحج بأهل العلم، فقال بعد ذكر فتنة الدس في القرآن: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾.

وفي هذه الآية دلالةٌ على منزلة أهل العلم عند الله تعالى، وأنهم هم الذين رُزقوا قوة التمييز بين البرهان القاطع الذي يستقرّ بالعقل في قرارة اليقين، والمغالطات وضروب السفسطة التي تطيش بالفهم، وتطير به مع الوهم[(١)].

والمراد بالعلم هنا علم النبوة لأنه هو الذي يبلغه الرسل عليهم الصلاة والسلام، ويتلقاه عنهم أصحابهم. وتفيد الآية كذلك أن اطمئنانَ القلوب وزيادة اليقين، قاصرٌ على أولي العلم، الَّذين جمعوا بين العلم ومعرفة الحقِّ، فهداهم الله إلى الصِّراط المستقيم، وقد بيّن الله أن أهل العلم تزداد معرفتهم بالحق بعد الفتنة، ويقوى تعلقهم به، حتى إن قلوبهم لَتصل إلى درجة الإخبات والطمأنينة:

(١) ينظر الإثارة الثالثة: الإمام محمد عبده (ص١٧٨-١٨٠)، ونقله القاسمي في محاسن التأويل (٧/ ٢٦٤).

﴿فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ﴾[1].

المطلب الثالث: تحديد وترتيب المصادر التي تؤخذ منها المعرفة:

أولاً: تحديد مصادر المعرفة:

أشار الله تعالى في سورة الحج إلى ثلاثة مصادر تؤخذ منها المعرفة: العلم الضروري، أو الاستدلال العقلي، أو الوحي[2]. **وبعبارة أخرى:** المعرفة الضرورية، والمعرفة النظرية، والمعرفة السمعية. فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨﴾ [سورة الحج: ٨].

فالمراد بالعلم في قوله: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾، العلم الضروري، والمراد بالهدى في قوله: ﴿وَلَا هُدٗى﴾: الاستدلال والنظر الصحيح الهادي إلى المعرفة.

وأشار بقوله: ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨﴾ إلى الوحي الإلهي، أي لم يستند إلى وحي مظهرٍ للحق[3]. وهذه الآية تفيد ذم الذين يجادلون من غير بمقدِّمةٍ ضروريةٍ ولا ببرهان نظري ولا بدليل سمعيّ[4].

وأسوأ أنواع المجادلين وأكثفهم طبعًا الذين يجادلون بغير علم من أنفسهم، ولا بهدى من غيرهم، ولا عن كتاب صحيح في أيديهم؛ لأن جمع الواحد منهم لهذه الجهالات كلها دليلٌ على إغراقه في الجهل وانهماكه في الضلال[5].

وهنالك من المفسرين من فسر العلم في هذه الآية بالقياس العقلي، والهدى بما يهتدى إليه عن طريق الكشف، والكتاب المنير بالكتاب المنزل من عند الله.

(١) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٦٩).
(٢) ينظر تفسير النسفي (٢/ ٤٢٩)، والتفسير المظهري (٦/ ٢٥٦).
(٣) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٦)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٧)، والبحر المحيط (٧/ ٤٨٨).
(٤) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٧).
(٥) ينظر نظم الدرر (١٣/ ١٥)، وروح البيان (٦/ ٩)، والتفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٩٢).

وعلى هذا القول ففي هذه الآية إشارة إلى أن أعلى أنواع الحجج العلم المأثورُ عن الكتب المنزلة من عند الله، ثم يليها كشوف الأولياء المحدَّثين الملهمين، ثم قياس القائسين من العلماء؛ فكأن الآية تضمنت هذه الحجج مترقيةً من الأدنى إلى الأعلى، ليبين أن الذي يجادل بالكتاب أعلاهم، وأدنى منه ما يعلم منه بالهداية الكشفية، وهو الهدى، وأدنى منه ما يعلم بالدليل القياسي، وخُصّ باسم العلم[1]. إلا أنه يرد عليه أن ما حصل عن طريق الكشف لا يصح الاستدلال به ولا الاحتجاج به على الخصم.

وقد أشار في آية أخرى إلى دليلي العقل والسمع، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾،

وفي هذه الآية إشارة إلى أن طريق الوصول إلى الحق هو العقل والسمع، فمن لم يسلك أحد الطريقين فسيضل في الدنيا وسيعذب في الآخرة. كما قال تعالى حكاية عن أهل النار: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠﴾ [سورة الملك: ١٠][2]. وقوله: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاّ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ (الفرقان: ٤٤).

ونعني بالعقل الحجج العقلية البدهي منها والنظري، وبالسمع ما جاء في النصوص الشرعية الثابتة.

ويدل قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أن ما دل عليه الدليلُ - نقلياً كان أم عقلياً - فيجب قبوله؛ لأن الله تعالى بيّن أن عبادة المشركين لغير الله تعالى ليست مأخوذة عن دليل سمعي، وهو المراد من قوله: ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، ولا عن دليل عقلي، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾[3].

(١) ينظر تفسير ابن تيمية (٤/ ٤٠٢ - ٤٠٣).

(٢) ينظر درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٣٩٤).

(٣) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٥٠)، وتفسير ابن عرفة (٣/ ١٩٩)، وروح المعاني (٩/ ١٨٩).

والعلمُ – بعد الدليل السمعي – إما ضروريٌّ أو استدلاليّ[(١)].

وتذييل هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ يُفيد الآية – على قولٍ في تفسيرها – أن من أعظم ما ينتصر به الإنسان لنفسه أن تكون له حجةٌ من صحيح النقل أو سديد العقل، وإلا فإنه يظلم نفسه؛ وليس له ما يُصوِّب ما ذهب إليه[(٢)]، أو ما يصح عند الضرورة أن يُتمسك به[(٣)].

ولنتحدث عن كل مصدر على حدة:

١- العلوم الضرورية:

العلم الضروري هو ما يحصل من غير نظر واستدلال، ومنه البديهيات العقلية التي يتفق عليها جميع العقلاء، كالعلم باستحالة اجتماع الضدين، وكون الجسم في مكانين، وأن الواحد أقل من الاثنين، وأن الكل أكبر من الجزء، وأن الشيء الواحد لا يكون معدوماً موجوداً في حال واحد... وهي لا تحتاج إلى دليل لإثباتها. ويشير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾، أن العلم الضروري يُستند إليه في الحِجاج؛ لأن المراد بالعلم كما تقدم – على قول طائفة من المفسرين – هو: العلم الضروري[(٤)].

٢- البراهين العقلية:

وأعني هنا العلوم النظرية التي تحصل بالنظر والاستدلال، وتفاوت الناس وتفاضلهم فيها، أمر جليّ وواقع، وكلما أعمل الإنسان فكره ظهر له ما لم يظهر لغيره.

---

(١) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٥٢٧). وقد فسر الزمخشري هذه الآية في الكشاف (٣/ ١٧٠) فقال: (ويعبدون ما لم يتمسكوا في صحة عبادته ببرهان سماوي من جهة الوحي والسمع، ولا ألجأهم إليها علم ضروري، ولا حملهم عليها دليل عقلي).

(٢) ينظر الكشاف (٣/ ١٧٠)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٧٩)، والبحر المحيط (٧/ ٥٣٥)

(٣) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٥٢٧).

(٤) ينظر الكشاف (٣/ ١٤٦)، وتفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٧)، والبحر المحيط (٧/ ٤٨٨)، وأضواء البيان (٤/ ٢٨٠).

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾.

دليل على جواز استعمال البراهين العقلية والحجج المنطقية – التي يدركها كلُّ ذي عقل سليم — في محاورة المنكرين وإقناعهم بحقائق التوحيد؛ وذلك أن الله استعمل هذه الحجة التي تقضي بعدم صلاحيَة الأصنام للألوهية، وبيَّن عجزها عن خلق ذباب واحد.

٣-الأدلة السمعية:

ونعني بالأدلة السمعية القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية، فهي التي يصدق عليها وصف الكتاب المنير، أي: نيِّر بيِّن الحجة [١]؛لأننا نؤمن أن لها نوراً يستضاء به في ظلمات الشبهات؛ لأنها وصلتنا بطريق صحيح.

أما غيرها من الكتب التي بين أصحاب الديانات الأخرى فهي لم تسلم من التحريف والتبديل.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ﴾، دلالة على أن الدليل السمعيَّ هو الحجةُ القاطعة، وعند ظهوره تضمحلُّ الآراءُ وتتلاشى الأقيسةُ، ومن عكس ضل الطريق، وحُرم التوفيق، وبقي متزلزلاً في ورطات الشُّبهات. ويؤخذ ذلك من أن الله تعالى اختص الدليلَ السمعي بالسلطان والتنزيل، فقال: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾، وكلمة السلطان تدل على أن الحجة التي تنزل من السماء لها القهر والغلبةُ على غيرها من الأدلة [٢].

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٦٨)، وتفسير القرطبي (١٢/ ١٥)، والفواتح الإلهية (١/ ٥٤٨).

(٢) ينظر فتوح الغيب (١٠/ ٥٢٧).

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾، إشارةٌ إلى أن من أراد الاستدلال بأقوى البراهين وأثبت الحجج فعليه بتدبر آيات الله المتلوّة، وهي آيات القرآن. لأن الله تعالى وصفها بأنها بيِّنات، وإنما وصفها بذلك لكونها متضمنةً للحجج العقلية والأدلة الواضحة على وحدانية الله وصدق رسله، ظاهرةَ الدلالة على العقائد الحقة والأحكام الصادقة[(١)].

ثانياً: ترتيب مصادر المعرفة:

مصادر المعرفة المتقدمة ليست على مرتبة واحدة، بل هي متفاوتة في قوتها، وقد وقعت الإشارة في آيات من سورة الحج إلى هذا التفاوت، فقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾ [سورة الحج: ٨]، تضمن هذه الحجج مترقياً من الأدنى إلى الأعلى، ليبين أن الذي يجادل بالكتاب المنير أعلاهم[(٢)]، وفيه إشارةٌ إلى أن أعلى أنواع الحجج هو العلم المأثورُ عن الكتب المنزلة من عند الله، ثم يليها الهدى، ثم يليها المعارف الضرورية المشار إليها بالعلم.

ويؤخذ من تقديم الدليل السمعي في قوله تعالى: : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾، على الدليل العقلي المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أن الدليل السمعي يُقدَّم في الاستدلال في الشرعيات على الدليل العقلي[(٣)]، وأن الاستناد في شأن العبادات إنما يكون إلى الدليل السمعي[(٤)].

ويستفاد من الآية أيضاً أنه إن لم يوجد دليل من النقل فيلجأ إلى دليل العقل؛

---

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٥٠)، وتفسير البيضاوي (٤/ ٧٩)، وتفسير ابن كثير (٥/ ٤٥٣).
(٢) ينظر تفسير ابن تيمية (٤/ ٤٠٢ – ٤٠٣).
(٣) ينظر روح المعاني (٩/ ١٨٩).
(٤) ينظر روح المعاني (٩/ ١٨٩).

لأن الله بين أن المشركين لَا دليل لهم على إشراكهم بالله من جهة السمع، ولا من جهة العقل، فنفى الأول الدليل السمعي أولا، ثم نفى الدليل العقلي، فهو تأسيس[(١)]. ولو كان انتفاء الدليل النقلي يستلزم انتفاءَ الدليل العقلي لاكْتُفِيَ بنفيِه وحده.

المطلب الرابع: الإرشاد إلى اعتماد البراهين وقواعد الجدل:

من أهم ما بنى به القرآن الكريم العقل إرشاده إلى اعتماد البرهان والاستناد إلى الحجج والأدلة، ويشهد لذلك مطالبته للمخالفين بالبرهان: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ (النمل: ٢٧)، أما سورة الحج فقد تردد فيها ذم الجدال بغير علم، في مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾. وفي تقييد الجدال بهذا القيد إيماءٌ إلى أن الجدال غير مذموم لنفسه، وإنما يذم لكونه بغير علم أو برهان[(٢)]. ويفيد قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩﴾ (الحج: ٨ – ٩)، أن كل جدال لا يقوم على علم يقيني ضروري، أو استدلال عقلي، أو كتاب سماوي، فهو منهار، وصاحبه في ضلال مبين[(٣)].

أولاً: الإرشاد إلى بعض الاستدلالات العقلية:

تضمنت سورة الحج بعض الاستدلالات العقلية على بعض القضايا الاعتقادية، كوحدانية الله، وقدرته على إحياء الموتى، ووقوع البعث..

١- **الاحتجاج بالقياس العقلي:** مما يستفاد من سورة الحج جواز الاستدلال بالأقيسة العقلية، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ

(١) ينظر تفسير ابن عرفة (٣/ ١٩٩). وقال ابن جزي في التسهيل (٢/ ٤٦): (بل الأحسن نفي العلم الضروري والنظري معاً).
(٢) ينظر الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية (ص: ٤٤٤).
(٣) ينظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٨٧).

ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾﴾[سورة الحج: ٥].

فقد تضمنت الآية قياسين:

أولهما: قياس إعادة الخلق على ابتداء الخلق من نطفة ثم من مضغة ثم من علقة، والجامع بينهما الإمكان والمقدورية.

وثانيهما: قياس إخراج الموتى أحياء من الأرض على إخراج الزرع من الأرض، والجامع كذلك هو الإمكان والمقدورية(١). كما صرح تعالى بذلك في آية أخرى فقال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة فصلت: ٣٩].

وذهب بعض أهل العلم إلى أن فواتح سورة الحج تضمنت نوعا منطقيا من أنواع «احتجاج المتكلم على المعنى المقصود بحجة عقلية تقطع المعاند له فيه»(٢)، وهو استنتاج النتيجة من مقدمتين، وذكروا أنها تنطوي على خمس نتائج من عشر مقدمات،

فالمقدمات من أول السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ (الحج: ١)، إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾﴾. والنتائج في الآيتين التاليتين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ (الحج: ٦ – ٧).

وتفصيل ترتيب المقدمات والنتائج أن يقال: الله أخبر أن زلزلة الساعة

(١) ينظر الإشارات الإلهية (ص: ٤٤٤ – ٤٤٥).

(٢) «تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر» لابن أبي الإصبع (ص١١٩).

شيء عظيم، وخبره هو الحق؛ لأنه خبر أخبر به مَنْ ثبت صِدقه عمن ثبتت قدرته، منقول إلينا بالتواتر، فهو حق، ولا يخبر بالحق عما سيكون إلا الحق، فالله هو الحق.

وأخبر الله تعالى بأنه يأتي بالساعة على تلك الصفات، وحصول فائدة هذا الخبر موقوفة على إحياء الموتى ليشاهدوا تلك الأهوال التي يعملها الله من أجلهم، ومن يأتي بالساعة يحيي الموتى فهو يحيي الموتى.

وأخبر أنه يجعل الناس من هول الساعة سُكارى لشدة العذاب، ولا يقدر على عموم الناس بشدة العذاب إلا من هو على كل شيء قدير، فالله على كل شيء قدير.

ويمكن أن تؤخذ هذه النتيجة أيضاً من أن الله أخبر أنه من يتبع الشياطين ويجادل فيه بغير علم يذقه عذاب السعير، ولا يقدر على ذلك إلا من هو على كل شيء قدير، فهو على كل شيء قدير[(١)].

وقد أخبر بالخبر الصادق أنه خلق الإنسان من تراب إلى قوله: ﴿ لكيلا يعلم من بعد علم شيئا﴾، وضرب لذلك مثلا بالأرض الهامدة التي ينزل عليها الماء فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج، ومَنْ خلَق الإنسانَ على ما أخبر به، فأوجده بالخلق، ثم أعدمه بالموت، ثم يعيده بالبعث، وأوجد الأرض بعد العدم، فأحياها بالخلق ثم أماتها بالمحْل، ثم أحياها بالخِصْب، وصدَق خبرُه في ذلك كله بدلالة الواقع المشاهد على المتوقع الغائب حتى انقلب الخبر عيانا، صَدَق خبره في الإتيان بالساعة، فالساعة آتية لا ريب فيها.

ويمكن أن يؤخذ ذلك من أنه تعالى أخبر أن الساعة يُجازى فيها من يجادل في الله بغير علم، ولا بد من مجازاته، ولا يُجازى حتى تكون الساعة آتية.

ولا تأتي الساعة حتى يبعث من في القبور؛ لأنها عبارة عن مدة تقوم فيها

(١) الإتقان في علوم القرآن (٤/ ٦١).

الأموات للمجازاة، فهو سبحانه يبعث من في القبور. وأخبر أنه ينزل الماء على الأرض الهامدة فتنبت من كل زوج بهيج، والقادرُ على إحياء الأرض بعد موتها يبعث من في القبور، فالله يبعث من في القبور[(١)] .

٢- الاستدلال بالشاهد على الغائب:

ما أرشد قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥﴾ [سورة الحج: ٥]. إلى حجية الاستدلال بالشاهد على الغائب، وأفادت أن من شأن العقلاء الاستدلالَ على الغائب بالحاضر المحسوس[(٢)]؛ لأن الله تعالى خاطب المنكرين بالطريقة التي تقبلها عقولهم القاصرة ويستدلون بها في كثير من أمورهم، فاستدل على البعث -وهو قضية غيبية- بأمر محسوس مشاهد وهو إحياء الأرض الجافة بإنزال المطر وإنبات النبات، ولذلك عبر بالرؤية فقال: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ﴾. وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار، وهي بصرية لا علمية[(٣)] .

وقريب منه قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةً﴾، فإن الإنسان يشاهد بعينيه اخضرار الأرض بنزول الغيث، ومَن قدر على إنزال الماء من السماء، وشقِّ الأرض، وإخراج النبات منها - مع لينه وضعفه وصلابة الأرض وشدتها - قادرٌ على بعث الخلق من قبورهم، ولا يحتمل أن يعجزه شيء، ومن قدر على إحياء الأرض بعد مواتها ويُبسها، قادرٌ على إحياء الناس بعد موتهم[(٤)] .

---

(١) ينظر تحرير التحبير (ص١١٩ - ١٢٠)، والبرهان في علوم القرآن (٣/ ٤٦٩)، والإتقان (٤/ ٦١).

(٢) ينظر أيسر التفاسير (٣/ ٤٥٥).

(٣) روح المعاني (٩/ ١١٤).

(٤) ينظر تفسير الماتريدي (٧/ ٤٣٧)، وتفسير القرطبي (١٢/ ٩١)، وفتوح الغيب (١٠/ ٥٢٢).

ومن الاستدلالات التي تضمنتها السورة الاستدلال على بطلان كون الأصنام آلهةً، بعجزها عن خلق ذبابة أو استنقاذ شيء سلبته منها، إذ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾.

فالعجز صفة مستحيلةٌ على الإله، والقدرة صفة واجبة له، فمن كان عاجزا فإن العقل يقضي بأنه لا يستحق العبادة بحال(١).

٣- ترتب المسببات على الأسباب:

ربط الله المسببات بالأسباب، فهلاك بعض الأمم مترتب على أسباب معينة، وبالتفكر يحصل اكتشافها. وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [سورة الحج: ٤٦] إرشاد إلى طريقة الاعتبار بأخبار الأمم البائدة والحضارات المندثرة، وهي بالاستدلال على ترتُّب المسبَّبات على أسبابها(٢).

٤- دلالة الاختراع:

وأما دلالة الاختراع، فيدخل فيها وجود الحيوان كله، ووجود النبات، ووجود السماوات. وهذه الطريقة تنبني على أصلين موجودين بالقوة في فطر جميع الناس.

أحدهما: أن هذه الموجودات مخترَعة، وهذا معروف بنفسه في الحيوان والنبات. فإنا نرى أجساماً جمادية ثم تحدث فيها الحياة، فنعلم قطعاً أن ها هنا موجِداً للحياة ومنعماً بها، وهو الله تبارك وتعالى.

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٠)، وزهرة التفاسير (٩/ ٥٠٢٩)، وتفسير الشعراوي (١٦/ ٩٩٣٨).

(٢) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٨).

وأما الأصل الثاني: فهو أن كل مخترَع فله مخترِع، فيصح من هذين الأصلين أن للموجود فاعلًا مخترعًا له،

وفي هذا الجنس دلائل كثيرة على عدد المخترعات [١].

ومن الآيات التي تضمنت هذا البرهان في سورة الحج قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾

(الحج: ٧٣).

وبدأ تعالى بنفي اختراعهم وخلقهم أقل المخلوقات من حيث إن الاختراع صفة له تعالى ثابتة مختصة لا يشركه فيها أحد، وثنى بالأمر الذي بلغ بهم غاية التعجيز وهو أمر سلب الذباب وعدم استنقاذ شيء مما يسلبهم وكان الذباب كثيراً عند العرب، وكانوا يضمخون أوثانهم بأنواع الطيب فكان الذباب يذهب بذلك[٢].

٥- دلالة العناية:

أحد طرق القرآن الكريم في إثبات وحدانية الله هو «طريق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله»[٣]، فجميع الآيات الكريمة التي تعد منافع الأشياء وتذكر حكمها إنما هي نساجة لهذا الدليل ومظاهر لتجلي هذا البرهان وزبدة هذا الدليل هي إتقان الصنع في النظام الأكمل في الكائنات وما فيها من رعاية المصالح والحكم.

ومن الآيات التي تتضمن هذا الدليل في سورة الحج قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ

(١) درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٣٢٣)، وبيان تلبيس الجهمية لابن القيم (١/ ٤٩٤).

(٢) البحر المحيط في التفسير (٧/ ٥٣٨).

(٣) بيان تلبيس الجهمية لابن القيم (٢/ ١٦٠).

لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥﴾ (الحج: ٦٣ - ٦٥).

وفي هذه الآيات يمتن الله على عبادة بأنواع من النعم، التي تدل على أن حكمة مقصودة، والحكمة تنفي نفياً قاطعاً أن تكون هذه النعم خلقت صدفة أو اتفاقاً، بل لا بد من مدبر حكيم.

المبحث الثالث: حماية الفكر وتحريره من عوائقه

كما حفظ الإسلام العقل بما يحفظ سلامة صاحبه، وبتحريم كل ما يحجب العقل ويغيبه.

فقد حفظه معنوياً بحفظه من العوائق الذاتية والاجتماعية التي تؤثر في سلامة التفكير واعتداله واستقلاله ويؤدي إلى الإخلال بوظائفه المنوطة به.

المطلب الأول: حماية الفكر من العوائق الذاتية:

ثمة جملة من العوائق الذاتية والمؤثرات النفسية التي تحول دون إلى تعطيل العقل، وقد نبه الله عليها وحذر منها في مواضع من كتابه:

١- ذم الجهل:

لقد أشار ربنا سبحانه في سورة الحج إلى أن الجهل مذموم، وعواقبه مرذولة، وذلك عندما أنكر على طائفة من الناس مجادلتهم في شأنه بغير علم مع سطوع الأدلة العقلية التي احتج بها الله على البعث، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [سورة الحج: ٣ – ٤].

وفي هذه الآية إيماءٌ إلى أن الجهل سبب للوقوع في الجدال في الحق، ومن ثم كلما قلّ العلم زاد الجدال المذموم في الحقائق البينة والمعتقدات الثابتة [(١)].

وتشير الآية إلى أن الإعراض عن العلم وإهمال النظر والتفكر يفضي بصاحبه إلى تقليد أئمة الضلال واتباع الشيطان في طرق الضلال.

ويدل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨﴾ [سورة الحج: ٨]، أن الجهالة لها درجات، فقد لا يكون عارفًا بالوحي، ولكن له نظر عقلي يهديه إلى الحق، وقد لا يكون قادراً على الاستدلال، ولكنه يعرف البدَهيات ويبني عليها. وأعلى أنواع الجهل حين

---

(١) ينظر تأملات وتدبرات لسورة الحج (ص ٥).

يجادل دون أدنى ذرة من علم. وفي قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٌۗ﴾، (يعني أنهم فعلوا ما فعلوا عن جهل، لا عن علم) (١)، وفي ذلك إشارة إلى أن العمل المبني على جهلٍ فاسدٌ؛ لأن الله أنكر عليهم عبادتهم ما ليس لهم به علم، ولو استندوا إلى العلم لما عبدوا غير الله تعالى.

وأسوأ أنوع الجهل: الجهل بالله تعالى، ويدل قوله تعالى: ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤﴾ [سورة الحج: ٧٤] على أنه بقدر الجهل بصفات الله وعدم معرفة لوازم ألوهيته وعدم تقديره حق قدره كما هو اللائق بشأنه يقع الإنسان في نسبة الله إلى ما لا يليق به، ويعدل عن عبادته وتعظيمه (٢)؛ لأن قوله تعالى: ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ﴾، وقع موقع التعليل لما قبله (٣).

٢- الكبر:

من المعلوم أن الكبر من أكبر أسباب الإعراض عن الحق وأكثف الحجب التي تحجب العقل، فهو يحمل صاحبه على إنكار الحقائق الثابتة وتجاهل البدهيات التي تقرر أن الأوثان لَا تضرُّ ولا تنفع. نفى الله تعالى عن الذين يجادلون في شأنه وشأن البعث استنادهم إلى العلم أو العقل، وإنما يجادلون جحوداً للحق واستكباراً عن اتباعه، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ (الحج: ٨ – ٩).

فهذا الصنف جاهل، يضل الناس بجهله، وليس له أثارة من علم ولا حجة من عقل، ومع ذلك فهو يجادل كبرا وغرورا. وعلامة كبره هو ثني عطفيه، وثني العطف ولَيّ العنق وإمالةَ الخدّ ولَيّ الرأس والنأي بالجانب كلها من أمارات

(١) تفسير البغوي (٥/ ٣٩٩)، وتفسير الخازن (٣/ ٢٦٤).
(٢) ينظر الفواتح الإلهية (١/ ٥٦٢).
(٣) ينظر تفسير أبي السعود (٦/ ١٢١)، وزهرة التفاسير (٩/ ٥٠٣٠).

الصدود والإعراض والاستكبار عن سماع دعوة الحق[1].

وفي هذا إشارةٌ أن من أراد أن يهتدي إلى الحق ويتبع سبيل الله فليحرِّر نفسه من الكبْر، وليتبع العلم والهدى والوحي؛ لأن الكبر حجابٌ عن الاهتداء والإذعان للحق. وقد قال تعالى في سورة أخرى: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [سورة الأعراف: ١٤٦].

٣- **الهوى:**

جاء في عدد من الآيات التحذير من اتباع الهوى سبب للضلال، ومانع من اتباع الحق، فقد خاطب الله تعالى نبيه داود عليه السلام فقال: ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (ص: ٢٦)، وأخبر نبيه ﷺ أن الذي يمنع المشركين من الاستجابة لدعوته مع ظهور حجتها أنهم يتبعون الأهواء فقال: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: ٥٠).

ولم يصرح الله ب"الهوى" في سورة الحج، ولكن تصويره للمجادلين في الله بلا عقل صحيح ولا نقل صريح، يومئ إلى أنهم يجادلون بالباطل اتباعا للهوى[2]، ولا يتوخّون البحث عن الحق.

المطلب الثاني: تحرير الفكر من سلطان العوائق الخارجية

١- **التنبيه على خطورة العوائق الاجتماعية:**

من الأمور التي حصن بها الإسلام عقل المسلم أنه حرره من أسر المؤثرات الاجتماعية التي يتأثر بها فتصرفه عن التفكر وإعمال عقله للوصول إلى الحق، ومن هذه المؤثرات:

---

(١) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٤٧١).

(٢) ينظر تفسير ابن كثير (٥/ ٣٩٩)، ونظم الدرر (١٣/ ١٥)، وتفسير المراغي (١٧/ ٩١).

- **سلطة الأحبار والرهبان والكهنة:** ولذلك استنكر طاعتهم كما في قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١).

- **سلطة الموروثات القبلية والمجتمعية:** ولذلك استنكر على الذين يعولون على اتباع الآباء وتقليد الأسلاف دون مراجعة أو نظر في صحة ما كانوا يعتقدونه أو يعملونه، كما في قوله تعالى: ﴿ بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ(٢٣) قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾ (الزخرف: ٢٢ - ٢٤).

- **سلطة السادة والكبراء والزعماء:** ولذلك استنكر اعتذار المشركين بطاعة كبرائهم واتباعهم لسادتهم: ﴿وَقالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ (الأحزاب: ٦٧). وبين أنهم يتبرأون منهم يوم القيامة.

- **اتباع الأكثرية:** قال تعالى: ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

- **سلطة قرناء السوء والأخلاء المضلين:** ولذلك ذكر مواقف يتبرأ فيها أهل النار من أخلائهم الذين أضلوهم في الدنيا، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي وَكانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولاً﴾ (الفرقان: ٢٩).

ومن العوائق التي تضمنتها سورة الحج:

٢- ذم التقليد:

ذم الله التقليد الأعمى ونعى على أصحابه بعد أن وجههم للنظر في دلائل قدرة الله تعالى في الأنفس والآفاق، فقال: ﴿ وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ

(البقرة: ١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاّ دُعاءً وَنِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٧٠ - ١٧١)،

ولما كان الدين في إعمال العقل كان في تعطيله جناية عليه، وسبب لفقدان الأهلية، وإلحاقه بالبهائم التي لا تعقل. بل ربما كانت أفضل منهم لأن البهائم تتجنب المضار، والذين عطلوا عقولهم يقبلون على ما يضرهم ويتركون ما ينفعهم، ويعرضوا عما فيه صلاح دنياهم وأخراهم. ولذلك قال: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ (الأنفال: ٢٢).

وقد أشار الله في سورة الحج إلى قبح التقليد فذمّ الذين يقلدون رؤساء الضلال ويستندون إلى ما علّمهم إياه المضلّون دون أن يُعملوا عقولهم ويتعرفوا على ما فيه من هدى أو ضلال[(١)]، وقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤﴾ [سورة الحج: ٣ – ٤]،

وتفيد الآية أن التقليد في شأن أصول العقائد مذموم؛ وأنه يجب على العاقل ألا يجعل نفسه تابعا لذي رأي فاسد، ومذهب ملحد لينجو من سوء المصير[(٢)].

كما أشار في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ﴾، في الآية إلى أن العبادة المبنيّة على التقليد فاسدة؛ لأن الله تعالى بين أنهم يعبدون ما ليس لهم حجة تجوز عبادتهم، وإذا لم يكن كذلك فهو عن تقليد أو جهل أو شبهة واهية، فوجب في كل قول هذا شأنه أن يكون باطلا، فمن ثَم تدل الآية على فساد التقليد[(٣)].

---

(١) ينظر التفسير القرآني للقرآن (٩/ ٩٩٢).
(٢) التفسير الوسيط لمجمع البحوث (٦/ ١١٧٦).
(٣) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٥٠). وتفسير ابن عرفة (٣/ ١٩٩).

٣- الحذر من التضليل والمضللين:

نبه الله تعالى على أن هنالك من يهدف إلى تضليل الخلق وصدهم عن سبيل الله، فهنالك شياطين الجن التي تزين الكفر والعصيان للناس، وتلقي الشُّبه في نفوسهم، ويسخرون جنده ليضادوا أماني الدعاة والمصلحين، ويوحون إلى أوليائهم من أئمة الكفر والضلال مطاعنَ يبثُّونها في أقوامهم، ويروجون الشبهات بإلقاء الشكوك التي تصرف نظر العقل عن تذكر البراهين الساطعة والحجج القاطعة، فقال في شأن جميع الأنبياء ومن يقوم مقامهم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٥٢﴾ (الحج: ٥٢). وهذا على القول بأن الإلقاء في قوله تعالى: ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ استُعير للوسوسة وتسويل الفساد(١). كما حذر الله تعالى من شياطين الإنس المتمردين الذين يضلون الناس ويسوقونهم إلى الباطل في الدنيا، ويقودونهم إلى النار في الآخرة، فقال: {وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [سورة الحج: ٣ – ٤]. وأخبر أنه يضلُّ أتباعه ولا يهديهم إلى الحق أبدًا.

تفيد الآية كذلك التحذير من رؤساء أهل الأهواء؛ لأنه يصدق عليهم أنهم من أشد الشياطين إضلالا لأتباعهم وأقطعهم لطريق الحق؛ لأنهم دوّنوا الضلالات في الكُتب، ولقّنوها لأتباعهم، وأمدوهم بالحجج للدفاع عن المعتقدات الباطلة(٢). ونبه إلى صفات المضلين، وأخبر أن دعاة الضلال يلوون رؤوسهم ويُوَلّون ظهورهم لئلا يسمعوا ما يخاطبون به من دلائل الحق؛ ويجمعون بين الكبر والجبروت، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٩٨).
(٢) الكشاف (٣/ ١٤٣).

﴿٨ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (الحج: ٨ – ٩). وأشار إلى أنهم لا يجادلون دفاعًا عن حق يعتقدونه، وإنما يريدون بجدلهم أن يوهموا الغوغاء ببطلان الإسلام كيْلا يتبعوه(١). ثم أخبر أن رءوس الضلال يلحقهم الهوان والذل بما يصيبهم في الدنيا من القتل والأسر والذم والذكر القبيح على ألسنة المؤمنين، ويصيبهم العذاب الشديد في النار في الآخرة، فقال: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٌۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩﴾ (الحج: ٩).

٤- التحقق من صحة المعلومات والحذر من تزوير الشيطان:

ينبه الله تبارك وتعالى إلى أن المعلومات قد يطرأ عليها نوع من أنواع التحريف أو التزوير، ومن ثم لا بد أن يتأكد الإنسان من صحة ما يسمعه أو يبلغه، لكي يبني عليه استنتاجاته بناءً صحيحاً. وليس كل ما يقال صحيحاً، وليس كل من ادعى دعوى فهو محق، وإنما الدعوى تثبت بالبينة، والنقل يفتقر إلى صحة الثبوت عمن نقل عنه. والقاعدة المعروفة عند علماء أدب البحث والمناظرة: "إن كنت ناقلًا فالصحة، أو مدعيًا فالدليل".

وتشير الآية إلى أن من صنيع الشيطان أن يغلّط العلماء، ويلقي من الكلام ما ينسب إليهم وهُم منه بَراء، ويلصق الزور إليهم، ويجعل الناس يتناقلونه ليشوهوا الذين يبلغونه، والدعوة التي يحملونها إليهم(٢).

ولذلك من القواعد في هذا الباب: التثبت، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]. وعلى المرء ألّا يأخذ بكلمة عابرةٍ من إنسان، فإن الشيطان قد يوقع في مسامع الناس كلاما من دون أن يتكلم به، أو يُجْري على لسانه ما لا يقصده(٣)، فتنةً واختبارًا للعباد.

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٩).

(٢) ينظر حسن التنبه لما ورد في التشبه (٦/ ٨٠).

(٣) بهذا المعنى وجهت الآية، ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٣٦)، وتفسير النسفي (٢/ ٤٤٧)، وروح المعاني (٩/ ١٦٤).

المبحث الرابع: وضع حدود للعقل

المطلب الأول: المجالات التي يدعو القرآن إلى التفكر فيها:

ذكر الله تعالى في كتابه العزيز عدة أمور ودعا إلى التفكر فيها، وذكر بعضها في سورة الحج، مرة بالتصريح بالدعوة إلى النظر فيها، ومرة أخرى باستعراضها وتحفيز المرء على التفكر فيها:

١-أطوار خلق الإنسان ونموه:

دعا الله إلى التفكر في أصل خلق الإنسان ومراحل تطوره من النطفة إلى الموت في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [سورة الحج: ٥].

وقد دعا في آية أخرى إلى تعقل انتكاس الإنسان في خلقته عند هرمه: ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾ (يس: ٦٨)

٢- التفكر في إحياء الأرض الميتة بالغيث:

وقد جاء هذا الأمر في كثير من الآيات، ومنها في الآيات الأولى من سورة الحج: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ۝٥﴾ [سورة الحج: ٥]. وهذه من آيات الله في الكون التي دعا الله إلى تعقلها: ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الروم: ٢٤).

٣-التفكر في تعاقب الليل والنهار:

وقد نبه الله تعالى على هذه الآية بقوله: ﴿ وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ﴾ (الروم: ٢٤). وقد دعا الله إلى تعقل ذلك في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (المؤمنون: ٨٠).

٤-التفكر في السماء والأرض وما فيهما:

كما في قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٦٥﴾ (الحج: ٦٣ - ٦٥). وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ﴾ (الحج: ١٨).

٥-التفكر فيما سخر الله للإنسان:

كتسخيره للأنعام، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٣٦﴾ (الحج: ٣٦). وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ﴾ (الحج: ٣٧).وتسخيره للفلك: ولما خلقه الله في الأرض عموما، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ (الحج: ٦٣ - ٦٥).

٦-الاعتبار بآثار الأقوام السابقين وأخبارهم:

ولذلك أمر الله بالسير في الأرض والنظر في آثار الغابرين فقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝٤٥ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ (الحج: ٤٥ – ٤٦). وقد قال سبحانه في سورة أخرى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٣٥).

٧-التفكر في عواقب المكذبين:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۝٤٢ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝٤٣ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ

أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ (الحج: ٤٢ – ٤٤). وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ (الحج: ٤٨).

٨-التفكر في الأمثال والحجج التي يسوقها القرآن:

ومن ذلك قوله تعالى في سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ (الحج: ٧٣).

والآية تومئ إلى أن الأمثال القرآنية يُخاطَب بها المؤمنون والكافرون، فالمؤمنون يعقلونها فيزدادون علما وبصيرة، والكافرون تقوم بها عليهم الحجة[(١)]، قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ [سورة إبراهيم: ٢٥]، وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣].

المطلب الثاني: بيان حدود العقل التي لا ينبغي له تجاوزها:

جعل الله تعالى للتفكر حدودا لا ينبغي له تجاوزها، فمنعه من الخوض فيما لا طاقة له، وما لا قدرة له على الوصول إلى كنهه، من قضايا الغيبيات، ككنه الذات الإلهية، وحقيقة الروح، وميقات الساعة، ونحو ذلك مما هو خارج عن نطاق قدرته، وما يستفيده من حواسه. وبهذا المنهج يضع القرآن في مكانه اللائق به بغير إفراط ولا تفريط.

ومن هذه الأمور التي وردت الإشارة إليها في سورة الحج:

١-ذات الله تعالى:

فالله تعالى لا تدركه الأبصار، ويحيط بوصفه الواصفون، ويفيد منطوق قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ [سورة الحج: ٣ – ٤]، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا

---

(١) ينظر تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٤٦).

﴿كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨﴾ [سورة الحج: ٨] حرمةَ الكلام في ذات الله وصفاته وأفعاله بغير علم من وحي إلهي أو كلام نبوي صحيح[١] .

٢-سر الحياة والموت:

فقد ذكر الله تعالى بعض الآيات الكونية كآية اختلاف الليل والنهار وغيرها، ثم أتبعها بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ﴾، وفي ذلك إيماء إلى أن الإنسان يلزمه أن يستسلم لله ويخضع له، إذْ لا يستطيع أن يفسر بعض الظواهر الكونية التي يراها كل يوم، فالحياة الأولى معجزةٌ تتجدد في كل حي يولد آناء الليل وأطراف النهار.

٣-حكمة الأحكام الشرعية غير معقولة المعنى:

تضمنت سورة الحج ذكر بعض مناسك الحج، وبعضها غير معقول المعنى، أي أنه ليس له علة واضحة يعيها العقل، والشأن في المسلم أن يستسلم لله في أمره. ولكي يدفع الله ما قد يوحي به التفكير العقلي لصاحبه من تساؤلات في شأن تلك المناسك دعا الله أكثر من مرّة إلى تعظيمها بقلوبهم وجوارحهم به ليظهروا إيمانهم به وتسليمهم لأمره[٢] .

ولذلك قال: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾ [سورة الحج: ٣٢]، وهذه الآية تفيد أنه يجب على المؤمنين تعظيم الأعمال التي ألزمهم بأدائها في الحج، حتى إن لم تدرك عقولهم الحكمةَ منها[٣] ؛ لأن التعظيم عملٌ قلبي مبنيٌّ على التسليم.

وفيها إشارة إلى أن تعظيم شعائر الحج هو تعظيمٌ لله، يتجلّى فيه درجة إيمان المؤمنين، وينكشف به ما عندهم من تقوى، إذ كانت هذه الأعمال - كما

(١) ينظر تفسير الرازي (٢٣/ ٢٠٢)، وأيسر التفاسير (٣/ ٤٥١).
(٢) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٣٤).
(٣) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٥٤١).

تبدو في ظاهرها - خارجةً عن منطق العقل. والإيمان حين يرسخ في القلوب يبعث على التسليم وعدم الاستجابة لأسئلة العقل الملحة عن الحكمة وراء تلك الأعمال، ولهذا قال تعالى: {فإنها من تقوى القلوب}، ليبين أن تعظيم هذه المناسك والقيام بها في إيمان وإخلاص إنما هو نابع من القلوب، وثمرة من ثمار التقوى المتمكنة منها[١].

٤-حكم اختيار الله واصطفائه:

إن الله تعالى يختار من الأيام أياما فيميزها عن غيرها، ويختارا بقعة فيميزها عن غيرها، ويختار ليلة من الليالي فيختصها بفضل ويميزها عن غيرها، ويختار بعض خلقه فيختصهم بالنبوة أو الرسالة. واختصاصه سبحانه لبعض الأزمنة أو الأمكنة أو الأشخاص بالفضل لا يستطيع أحد أن يحيط بحكمة الله فيه.

وقد اعترض مشركو قريش على كون سيدنا محمدا ﷺ رسولا من الله بناءً على المعايير الدنيوية، وقالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ [سورة ص: ٨][٢]، وقالوا: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣١)، فأجابهم الله تعالى بهذه الآية وختمها بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ (الحج: ٧٥ – ٧٦). أي أنه لا ينبغي الاعتراض على اختصاصه بالرسالة؛ لأنه تعالى حكيم في اختياره، بصير بعباده، يعلم من يصلح للنبوة ومن لا يصلح[٣]، وليس لأهل العقول مهما بلغت عقولُهم من الفطنة والذكاء أن يطّلعوا على خفايا الأمور، فيصطفوا للمقامات العليا من قد تخفى عنهم نقائصُهم[٤].

(١) ينظر التفسير القرآني (٩/ ١٠٣٣).

(٢) ينظر تفسير الطبري (١٦/ ٦٣٨)، والكشف والبيان (٧/ ٣٥)، ونسبه الواحدي في البسيط (١٥/ ٥٠٣) إلى مقاتل.

(٣) ينظر الكشف والبيان (٧/ ٣٥).

(٤) ينظر التحرير والتنوير (١٧/ ٣٤٤).

خاتمة:

من خلال هذا البحث تبين أن سورة الحج مع أن مقصدها الدعوة إلى تقوى الله ظاهراً وباطناً وتعظيمه وتوحيده،

ومع أن طائفة من آياتها في شأن توحيد الله واليوم الآخر،

وبعضها في العبادات، وعلى رأسها عبادة الحج،

فإنها تضمنت ما يبني العقل المسلم، فمن جهة نمّته فدعت إلى التفكر في المخلوقات، وآثار الأمم السابقة،

وأشارت إلى قيمة العلم ومنزلة العلماء، ومن جهة أخرى حددت مصادر المعرفة ودلتنا على ترتيبها،

وأرشدتنا إلى اعتماد البراهين ودلتنا على بعض الأدلة العقلية، ومن جهة ثالثة نبهت من عوائق العقل كالجهل والكبر والتقليد واتباع المضلين، ووضعت له حدوداً لا ينبغي له أن يتجاوزها ليكون تفكيره نافعاً له مفيداً للعلم، باعثًا له على العمل الصالح.

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

١. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن:** محمد الأمين الشنقيطي. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت، لبنان. ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٢. **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**: أبو بكر جابر الجزائري. مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية. ط٥، ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م.

٣. **بحر العلوم:** أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي. تحقيق: الشيخ علي معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والدكتور زكريا عبد المجيد النوتي. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

٤. **البحر المحيط في التفسير**: أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف ابن حيان الأندلسي. تحقيق: صدقي محمد جميل. دار الفكر، بيروت. ط ١٤٢٠هـ.

٥. **تأويلات أهل السنة = تفسير الماتريدي:** أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي. تحقيق: د. مجدي باسلوم. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٦. **تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**: أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي. دار إحياء التراث العربي، بيروت. د.ت.

٧. **التفسير البسيط**: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، النيسابوري. أصله ١٥ رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. ط ١، ١٤٣٠هـ.

٨. **تفسير ابن جرير الطبري** = **جامع البيان في تأويل القرآن:** محمد بن جرير بن يزيد الآملي، أبو جعفر الطبري. تحقيق: أحمد محمد شاكر. دار هجر، مصر. ط ١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٩. **تفسير ابن كثير = تفسير القرآن العظيم.** أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي. تحقيق: سامي بن محمد سلامة. دار طيبة للنشر والتوزيع. ط ٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٠. **تفسير التحرير والتنوير**: محمد الطاهر بن عاشور. الشركة التونسية للتوزيع، تونس. ط ١، ١٩٨٥م.

١١. **التفسير الحديث**: محمد عزت دروزة. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة. ١٣٨٣هـ.

١٢. **تفسير الشعراوي**: محمد متولي الشعراوي. مطابع أخبار اليوم، القاهرة. نشر عام ١٩٩٧م.

١٣. **تفسير السمعاني = تفسير القرآن**: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني. حققه: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم. دار الوطن، الرياض – السعودية. ط ١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

١٤. **تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم الرازي**: حققه: أسعد محمد الطيب. مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية. ط ٣، ١٤١٩هـ.

١٥. **التفسير القرآني للقرآن**: عبد الكريم يونس الخطيب. دار الفكر العربي، القاهرة. د.ت.

١٦. **تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن**: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي. تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. دار الكتب المصرية – القاهرة. ط ٢، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.

١٧. **تفسير المراغي**: أحمد بن مصطفى المراغي. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر. ط١، ١٣٦٥هـ – ١٩٤٦م.

١٨. **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**: مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر. الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية. ط ١، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

١٩. **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**: محمد سيد طنطاوي. دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة. ط ١. (جزء ٥) يونيو ١٩٩٧م.

٢٠. **تهذيب اللغة**: أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي. تحقيق: محمد عوض مرعب. دار إحياء التراث العربي، بيروت. ط ١، ٢٠٠١م.

٢١. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي. تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق. مؤسسة الرسالة. ط ١، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

٢٢. **روح البيان**: المولى أبو الفداء إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي. دار الفكر، بيروت. د. ت.

٢٣. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي. حققه: علي عبد الباري عطية. دار الكتب العلمية – بيروت. ط١، ١٤١٥هـ.

٢٤. **زهرة التفاسير**: محمد أبو زهرة. دار الفكر العربي. ١٩٨٧م.

٢٥. **السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير**: شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي. مطبعة بولاق الأميرية، القاهرة. عام ١٢٨٥هـ.

٢٦. **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري. تحقيق: الشيخ زكريا عميرات. دار الكتب العلمية، بيروت. ط١، ١٤١٦هـ.

٢٧. **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في التفسير**: محمد بن علي الشوكاني. دار ابن كثير، دمشق، ودار الكلم الطيب، بيروت. ط ١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٢٨. **القاموس المحيط**: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي. مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان. ط٨، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٢٩. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله الزمخشري. دار الكتاب العربي، بيروت. ط٣، ١٤٠٧هـ.

٣٠. **اللباب في علوم الكتاب**: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي. تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. ط١، ١٤١٩هـ -١٩٩٨م.

٣١. **محاسن التأويل**: محمد جمال الدين القاسمي. تحقيق: محمد باسل عيون السود. دار الكتب العلمية، بيروت. ط١، ١٤١٨هـ.

٣٢. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: أبو محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي المحاربي. حققه: عبد السلام عبد الشافي محمد. دار الكتب العلمية – بيروت. ط ١، ١٤٢٢هـ.

٣٣. **معاني القرآن**: أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس. حققه: محمد علي الصابوني. جامعة أم القرى، مكة المكرمة. ط١، ١٤٠٩هـ.

٣٤. **معجم مقاييس اللغة**: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. دار الفكر. ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٣٥. **مفاتيح الغيب**: محمد بن عمر بن الحسن الملقب بفخر الدين الرازي. دار إحياء التراث العربي، بيروت. ط ٣، ١٤٢٠هـ.

٣٦. **المفردات في غريب القرآن**: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني. تحقيق: صفوان عدنان الداودي. دار القلم، الدار الشامية — دمشق/ بيروت. ط١، ١٤١٢هـ.

٣٧. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البِقاعي. دار الكتاب الإسلامي، القاهرة. ١٤٠٤هـ — ١٩٨٤م.

٣٨. **الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه**: أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني. مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة. ط١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.